


المنظومة
ALMANDUMAH

الميز والاعتراف في دولة الموحدين
على عهد المهدي وعبد المومن...


عبد الرزاق ازريكم*

معلوم أن الدولة المرابطية لم تكن تعاني من مظاهر الضعف والانحلال الاقتصادي والفساد الأخلاقي والإداري، والوهن والضعف العسكري الذي وصفت به حين ظهر المهدي على مسرح الأحداث السياسية بمراكش. وخير دليل على هذا الصمود المرابطي أمام المحاولات المتكررة للموحدين للقضاء عليهم، هو استمرار الاحتضار المرابطي إلى غاية سنة 541 هجرية. وقد بدأت هذه المحاولات منذ بداية تصدي المهدي بن تومرت لأمير المسلمين علي بن يوسف. ومناظرته للفقهاء بالمسجد وتفوقه عليهم وما ترتب عن ذلك من ازدياد عدد أتباعه وعلو شأنه. لكن الهزيمة في وقعة البحيرة حدت بالموحدين إلى تكرار المحاولات وبالمرابطين إلى الاستمرار في المقاومة إلى أن تمكن عبد المومن بن علي من دخول مراكش سنة 541 هجرية.

لكن مع تعدد الجبهات التي كان يواجه فيها المرابطون خصومهم. نجد من بين الثغرات التي استغلها ابن تومرت ووظفها لصالحه، الطريقة التي كان ينصاع بها الأمراء المرابطون لتوجهات ورغبات الفقهاء من رجال الدولة.

العامل الثاني من عوامل الانهزام في مواجهة المهدي : اندحار فقهاء الدولة في مناظرتهم للمهدي وعجزهم البين في الدفاع عن أطاريحهم. هذا التفوق الملموس

* أستاذ باحث من كلية الآداب بمراكش.

النتائج جعل كفة بن تومرت ترجح ويتبعه العديد من الناس وعلى رأسهم الطلبة. لكن هذا لم يكن ليؤتي أكله لولا الصدى الذي خلفته جرأته على علي بن يوسف. وقد أورد ابن علي الصنهاجي(1) أطوار هذا الحدث ضمن باب في مؤلفه. ذكر فيه دخول المعصوم مراكش. وبدأ الخبر بذكر نزوله بها بمسجد صومعة الطوب. ولما كان يوم الجمعة أقبل إلى جامع علي بن يوسف، فوجد علي ابن يوسف قاعدا على "غفارة بن تيزمت" والوزراء واقفون، فطلب منه أن يود الخلافة على الأمير. وكان رفضه بالتساؤل : " وأين الأمير ؟ إنما أرى جواري منقبات" فكانت إجابة علي بن يوسف بعد أن حط النقاب عن وجهه بأن "قال لهم صدق" فدخل مع علي بن يوسف في جدال حول الخلافة. فوصلت الجرأة به إلى أن خاطب الأمير باسمه مجردا – وقد ينعت هذا بأنه تطاول على الأمير – حيث قال له المعصوم : " يا علي،قم عن هذه المغيرة تكون إمام عدل" !

يتضح مما ذكر آنفا أن شعبية المهدي بدأت تأخذ في الانتشار، وهو آخذ في الذهاب إلى تينمل، حيث البحث عن العصبية ومركز الانطلاق. وكان هذا من طبيعة الحال بعد أن أنهى مقابلته مع علي بن يوسف. وكان في خروجه إلى باب المسجد والقعود به حتّى يخرج الناس، أمرا ذا دلالة عميقة، لا يجدر بنا إغفاله، أو التقليل من أهميته. لأن الطريقة التي عرض بها البيدق عناصر هذا التطاول على ولي الأمر من قبل المهدي، أبرزت للعيان الدفعة المعنوية القوية التي شعر بها ابن تومرت وهو يواجه علي بن يوسف، وبعدها وهو يغادر إلى باب المسجد ليجلس هناك ويمر عليه الناس في خروجهم، ونفسه مزهوة بنشوة التفوق والانتصار وكأني به يريد تحقيق ما يلي :

* أن يتأكد من حرية تنقله داخل المسجد دون أن يتعرض لمضايقة رجال علي بن يوسف أو يحدوا من حركته.
* أن يكون قريبا من الناس وهم يغادرون ليسمع رد فعلهم وانطباعهم على ما قام به في حضرة الأمير علي بن يوسف.
* كأنه لا يثق بأحد ويريد التأكد بنفسه من هذا الانطباع. ونفس هذا التصرف هو ما درج عليه، وصاحبه عبد المؤمن بن علي في ما بعد أثناء ممارسة عملية التمييز بين القبائل والمحاربين.
* العودة إلى المسجد والدخول مع الفقهاء في المناظرة "حتى قهرهم القهر الكلي" – وهذا من طبيعة الحال رأي البيدق وهو يلزمه – وبهذا الفعل يكون قد حقق الانتصار على خاصة الأمير وحماة المذهب.
* وقد تكرر هذا في مسجد عرفة بمراكش لما بعث علي بن يوسف العلماء حتى وصلوا من كل جانب ومكان. فكان البيدق يذاكرهم ويعمل على إفحامهم.

* ومن ثم، جاءت دعوة الفقيه ابن وهيب الإشبيلي(2) لعلي بن يوسف كـــي يثقفـــه "ويجعل عليه كبلا، كي لا يسمع له طبلا"! لأنه صـــاحب الدرهـــم المركـــن الـــذي سيقضي عليهم.

إن حديث البيدق عن الإمام المعصوم، يدعو إلى كثير من لحظات التـــأمل والتمحيص لكل ما وصلنا من أخبار هذا الإمام، الذي تم تصويره كشخصية غريبـــة لها من المؤهلات ما يجعلها تستفيد من كل الفرص المتاحة لتحقيق الغلبة على مـــن اعتبروا من وجهة نظره مغتصبين للخلافة. فهل كان المهدي يعرف حجـــم قوتـــه وقدرته على المواجهة المرتقبة؟ مهما يكن من أمر، فالحديث عن سياســـة المـــيز والاعتراف التي سنها المهدي، وتبعه فيها خلفه عبد المؤمن، تدعو إلى كثـــير مـــن التأمل والاحتراز.

لكن لماذا تم اختيار هذين التعبيرين ؟ ... التأمل أولا ، والاحـــتراز ثانيـــا. لأن في ذلك الكثير من الدواعي التي تفرض نفسها على قارئ كتابات البيدق، وهـــو المبهور بالإمام المعصوم، للتأمل في العبارات التي أرخ بها للأحداث زمن الإمـــام ورفيقه عبد المؤمن لنستشف ما يلي:

1 ــ المبالغة في وصف الهالة القدسية التي تحيط بالإمام وحسم نتيجـــة المعـــارك الكلامية لصالحه.

2 ــ التقليل من شأن خصومه في المناظرات، والتباهي بالتفوق عليهم.

3 ــ مشروعية التأمل في هذه العبارات، مدعاة للبحث عن الموضوعية في كتابـــات البيدق من ناحية. ومن ناحية أخرى البحث عن الواقعية في تصرفات المهدي وهـــو يقحم نفسه في معارك قد يظن للوهلة الأولى أنه لا يستطيع الخروج منها آمنا علـــى نفسه. ومع هذا كله نجد أبو بكر بن علي الصنهاجي قد أعلى من شأنه ورفع مرتبته إلى مقام الإمام المعصوم حقا وصدقا. وهذا ما نقرأه مجسدا في عنـــاوين الأبـــواب التي تحدث فيها عن المواقع التي دخلها المهدي. حيث نقرأ العبارة التاليـــة :"بـــاب نذكر فيه دخول سيدنا المعصوم..."(3)، وتارة أخرى يورد نفس العبارة، لكـــن دون ذكر لكلمة "سيدنا"(4)، وفي باب ذكره باسم "الإمام المهدي"(5)، وفي باب البيعة ذكـــر اسم المهدي مجردا من كل الأوصاف(6) ، وفي باب الغزوات التسعة التي خاضـــها ابن تومرت ذكر البيدق العبارة التالية "غزواته رضي الله عنه"(7).

وأقف عند هذا الحد في الحديث عن مشروعية التأمل في ما ذكـــرت، إلـــى تناول جانب الاحتراز حين نقرأ للبيدق وهو يتحدث عن سياسة المـــيز والاعـــتراف التي أشرت إليها آنفا. وأفصل هذا في النقاط التالية.

1 ــ الاحتراز واجب، لأن مصدر معلوماتنا شخص يدين بـــالولاء التـــام للمـــهدي ورفيقه عبد المؤمن. فهو بذلك لا نراه يسجل ما يسوء إليهما، مما يظـــن هـــو أنـــه كذلك. أما نحن فنراه مهما لمعرفة الرجلين.

2 ــ الاهتمام بكل ما يقوم به المهدي وتسجيله، لا ينبع من قناعة البيدق على أن تصرفات المهدي تصدر عن شخص معرض للخطأ. بل يظن يقينا بأن أفعال وأقوال المهدي هي صادرة عن شخص له من الصفات ما يميزه عن عموم الناس ويطرحه بديلا للنظام الحاكم. الذي أصبح عاجزا بأطره أن يواكب المستوى الذي ما فتئ ابن تومرت يعرضه في المساجد، ويناظر فيه فقهاء الدولة.
3 ــ أننا لا نملك مصادر مرابطية توضح، أو تصف ظروف وملابسات القضايا التي كان يثيرها ابن تومرت في مجالس المرابطين، وهو يحاول هدم الأساس الذي انبنت عليه دولتهم.
4 ــ الاجتهاد المتواصل من قبل البيدق للبحث عن المشروعية للقضاء على حكم المرابطين، في الأعمال التي كان يقوم بها المهدي. خصوصا وأنه وصف بالمثير للفتنة. وكان علي بن يوسف قد تأكد من خراب دولته على يديه. وهذا ما ذكره البيدق وهو يورد الحوار الذي دار بين علي بن يوسف وينتان (بسكون النون) بن عمر الذي جاء فيه "... يا عمر : قال لي الفقهاء إن خراب دولتنا على يديه ! فقال له : يا أمير إن كان خراب دولتنا على يديه فقد خربت قبل رؤيتنا إياه، فقال له علي بن يوسف فما نصنع به ؟ فقال له : يا أمير المسلمين اسركه (بسكون الكاف وضم الهاء) في بساطك يعلمنا العلم أو اتركه يسير في بلادك. فقال له علي بن يوسف : مره يخرج من بلادنا"(8).
5 ــ النص الوارد أعلاه، رغم طوله النسبي، يحتوي على الكثير مما يمكن استغلاله في بسط جانب الاحتراز الذي يجب أن يكون حاضرا عند قراءة ما دونه البيدق في أخبار المهدي. وأكتفي بإيراد عبارتين من هذا النص دالتين على ما أقول: الأولى وهي التي أجاب بها ينتان بن عمر على أمير المسلمين"، إن كان خراب دولتنا على يديه، فقد خربت قبل رؤيتنا له". وكأنه يريد التأكيد على الآتي:
أولا : أهمية شخصية ينتان بن عمر وسير بن وربيل اللذان قاما بتذكير أمير المسلمين بعواقب سجن رجل يعرف الله. وكان رد علي بن يوسف بالفعل لا بالقول، ذلك بأن غضب وخرج عنهم. وهذا التصرف غير حكيم من جانب علي بن يوسف الذي لم يكترث لعواقب هذا التصرف.
الأمر الثاني: هو إظهار تصدع الجهاز الذي يدافع عن شرعية الدولة. واعتماد علي بن يوسف عليه كلية لم يعد يجدي نفعا ما دام الغضب والتوتر أمسيا سيدا الموقف في الحوار بين أمير المسلمين ومقربيه.
الأمر الثالث: إن عليا لم يعد يسمع لمستشاريه من الفقهاء، الراغبين في تعلم ما يجعلهم في مستوى المواجهة مع ابن تومرت. وفي هذا تعبير صريح منهم على التفوق الذي يتمتع به المهدي. وهذا ما عبر عنه ينتان "اسركه في بساطك يعلمنا العلم أو اتركه يسير في بلادك".

الأمر الرابع هو تركيز البيدق على جانب الإقناع وسلطة العلم على استعمال العنف. وهكذا يظهر البيدق على أنه الشخص المرغوب فيه، والقادر على الإقناع عكس المرابطين المتسلطين على رقاب الناس.

الأمر الخامس : نستخلصه من أمر علي بن يوسف لبينتان بن عمر " مره يخرج من بلادنا". فهل كان يقصد بعبارة "بلادنا" الحدود الطبيعية للحكم المرابطي؟ أم أنه يقصد مراكش التي أمن فيها على نفسه بعد أن أحيطت بسور وبات يتحكم في أبوابها الحراس.

الأمر السادس: هو التركيز على الجوانب التي استغلها المهدي كأسلحة معنوية أتت أكلها في التقليل من شأن علي بن يوسف ومن يعتمد عليهم من الفقهاء. وقد باتت محاولات القتل تلاحقه إلى أن وصل هرغة.

أقف عند هذا الحد من الحديث عن البيدق وما كتبه والطريقة التي كتب بها وولائه للمهدي الذي جعله يحيد عن الموضوعية وهو يتناول أخبار المرابطين بادئ الأمر، وعن عموم الناس لاحقا والمهدي يتهيأ لخوض غمار المواجهة المسلحة مع المرابطين. وهذا ما نقف عليه في أخبار المهدي ابن تومرت، حيث نجد البيدق قد تحدث عن تسع غزوات قام بها المهدي، قبل أن يذكر، ولأول مرة مصطلح "الميز" وفيما بعد "التمييز".

وهذا ما نجده في نص العبارة التي يقول فيها "...فأمر بالميز، فكان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عيانا. وزاد الذين أمنوا إيمانا... وكان تمييز البشير للخلق من يوم الخميس إلى يوم الجمعة بعد أربعين يوما. فمات يومئذ من الناس خمس قبائل بموضع يقال له إيكرن وسنان(9). فلم هذا التمييز بعد حدوث تسع غزوات قبل وقعة البحيرة ؟ ثم لماذا استعمل البيدق عبارة "فأكرم الله المهدي بدعوة البشير"(10) قبل أن يأمر بالميز مباشرة ؟

إشارة أخرى نود طرحها، وهي تهم الصف الموحدي بزعامة المهدي وما كان يعج به من عناصر بشرية، وهي متعددة المشارب والأهداف. وكان توقيت هذا التجميع البشري غير المشروط قد بدأ يتشكل منذ أن حل هو ورفاقه بمدينة أغمات. وانتهى بعودته من تينمل للقاء المرابطين بموقعة "البحيرة" سنة 524هـ .

ولهذا كان لزاما عليه إخراج المخالفين من جهة، والمنافقين من جهة أخرى، والخبثاء من الموحدين. فهل كان للمهدي من المبررات ما يدعو للتوقف والقيام بإجراء الميز قبل مواجهة المرابطين، مع العلم بأن المهدي هو الذي نهج سياسة إثارة العامة والسوقة من الناس، ليكسب عطفهم وتأييدهم له، ويخرجهم من تحت سيطرة علي بن يوسف، وهذا نهج الخارجين عن السلطة المركزية بالمشرق الإسلامي. وهو ما سعى المهدي إلى تطبيقه في الخروج عن سلطة المرابطين. ومع ذلك نرى المهدي يضحي بطرف كبير من أصل مكونات هذه الأصناف من الناس

ويعتمد معايير نجهل نحن المقاييس التي اعتمدها البشير الونشريسي، بأمر من المهدي، ليقوم بعملية التصفية هاته. ويكون له وحده حق الإبقاء على المؤيدين بدلا عن المخالفين، والصادقين بدل المنافقين، والطيبين عوضا عن الخبثاء. فأية معايير تم اعتمادها لتنقية العصبية ؟ وهل كان الأمر يحتاج لإراقة كل هذه الدماء؟ فإذا كان النعت الذي وصفه به سير بن وربيل وييتتان بن عمر على أنه (أي المهدي) "يعرف الله وهو أعرف أهل الأرض بالله تعالى". فكيف به يقدم على فعل لا يستطيع أن يكشف على الباطن فيه. وهو إلى هذا الحين لم ير من هؤلاء المميزين ما يسيء. والإطار الذي نرجح اعتماد المهدي عليه، إن لم يكن هو بالتأكيد مضمون إطار المرجعية الدينية المبنية على ما أتت به الآية الكريمة "ليميز الله الخبيث من الطيب" أو نظيرتها الموجودة بسورة الأعراف" ما كان الله ليذر المؤمنين على ما انتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب"(11). هذه إذن هي المرجعية التي انطلق منها المهدي ليؤسس لهذا الفعل الذي لم يسبقه إليه أحد من قبل. فما نتيجة هذا "الميز" الذي دام من الخميس إلى الجمعة على مدى أربعين يوما. ومهما كانت محاولتنا لتقريب صورة المشهد الرهيب الذي صاحب هذه العملية فسيكون التقصير بينا لا محالة.

ومع ذلك ترد بعض الإشارات في كلام البيدق يحاول من خلالها إعطاء بعض الحقائق، وإخفاء الكثير من التفاصيل والجزئيات. ففي قوله مثلا :"فمات يومئذ من الناس خمس قبائل"(12) كلام عام لا يمكن شرحه إلا بوقائع أخرى، أو بتفسير افتراضي، وهذا الأخير لن يكون في مجمله إلا خاضعا للظن والتأويل. وهذا ما لا يساعد على الوصول للحقائق بموضوعية. ومع ذلك أماشي هذا الطرح لأعطي لنفسي الحق في طرح بعض الاستفسارات عما جرى فأقول : بعدما اجتمع الناس في صعيد واحد كيف كان وضعهم؟ ونحن لا نعلم الطريقة التي جمعوا بها ولا كيف كانت أحوالهم ؟ ولا بما كانوا يتزودون ؟ ومن الناحية الأمنية من كان يسهر عليهم أو لنقل بالأحرى من كان يحرسهم ، وهل كانوا يعلمون أو يتوقعون ماذا سيحل بهم ؟

إذن جمع الناس في صعيد واحد بهذا الشكل المهول ليدفع بالمجتمعين إلى تخمين نتيجة هذا العمل، التي تبدأ في الظهور منذ الوهلة الأولى. لأهمية الحدث ولكثرة الخلق. والعامل النفسي لابد أن يكون حاضرا بقوة في مثل هذه المواقف خصوصا إذا علموا بمآل مصيرهم. ومع ذلك يورد البيدق الخبر ببساطة لا تثير الانتباه ولا العجب. فكانت النتيجة كما ذكر هو موت خلق كثير، دون ذكر العدد لكنه في المقابل حدد انتمائهم ومن أين ينحدون. فذكر بالتحديد ما يلي :"فمات يومئذ من الناس خمس قبائل بموضع يقال له ايكرن وسنان، مات به إيسلداين ن واه ناين ومات من هنتاتة امتزكا، ومات أين ماغوس بموضع يقال له إيكرن آيت كورييت مع أصادن وكدميوة متاع تاكوشت..."(13). ما نستنتجه من خلال ما سلف ذكره أن

عملية "الميز" لم تتم بموضع واحد. بدليل ذكره لموضعين في النص الـذي أسلفت ذكره. أضف إلى ذلك أن عملية "الميز" كانت تسبقها حمـلات عسـكرية لتمـهيد الوضع لما سيأتي فيما بعد. وهذا ما وقع بالفعل قبيل موقعة البحيرة. وقد أورد هـذا البيدق تصريحا لا تلميحا في قوله :"اعلم يا أخي أن البشير لما خرج للغـزو جـد حتى وصل لموضع يقال له تاغزوت، ثم لوا بالخيل لموضع يقال له مشـرا كمـار بيران تغرذآيين فقتل به عمر بن يملوك وغنم خيله ورجعنـا إلـى تـاغزوت (...) وأقمنا بها أياما. ثم بعد ذلك خرج الناس كافة إلى البحيرة"(15).

باعتماد ما أسلفت ذكره من كلام البيدق، فهو لم يعط الحصيلة العددية التـي انتهى بها "التمييز" وهذا النقص لا يمكن أن يكون ناجما إلا عن :

أولا سرعة تنفيذ العمليات العسكرية. واختيار مواقع "التمييز" بعينها لتنفيذ الحكم فـي من وقع عليه الاختيار ليقتل.

ثانيا أن قوة المهدي العسكرية لا زال يغلب عليها طابع الاندفـاع والعاطفـة علـى التنظيم والتدريب.

ثالثا أن ما كان يظن من أن عملية "التمييز" قد خلفت ضحايا كثر، ما هو إلا مبالغـة في قـراءة النصوص العامة التي تحدثت عن ذلك. وهذا لا يمنع من القـول: بـأن نظام "التمييز" قد أحدث لتصفية المعارضين لأمر المهدى، مـن غـير الموحديـن والموالين له.

العدد الذي خرج به البشير من "التمييز" قبل التوجه للقاء المرابطين بموقـع البحيرة هو (3000 رجل ، وكان بها 300 عجوز). والراجح أن العدد كان أكبر مـن ذلك لأنه قال :"فاجتمع بها معنا ثلاثة آلاف رجل وكان بها ثلاثمائـة عجـوز". إذن فالقادرين على القتال من هذا العدد الإجمالي لا يزيد عن (2700 رجل). ومن حيـث دلالة هذه الأرقام، فهي توحي بتركيز البيدق على العشر ليذكرنا بمسألتين : الأولـى تشير إلى بيعة الرضوان والأصحاب العشرة مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم. والثانية تمثل ما وقع في غزوة بدر. حيث انتصرت القلة العددية مع الإيمان، علـى الكثرة العددية وغياب وحدة الهدف. والدليل القرآني في هذا الشأن يقـول:"إن يكـن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين وإن تكن منكم مائة يغلبوا ألفـا مـن الذيـن كفروا بأنهم قوم لا يفقهون"(16). في المعادلة إذن: أن[20 فردا، يغلبـون 200] أي [10 أفراد، يغلبون 100].والحصيلة: أن [1 فرد، وجب عليه أن يغلب 10].وبعـد أن جاء التخفيف أصبح مطلوبا من [100 صابرة، أن تغلب 200].ومـن [1000 صـابرة أن تغلب 2000].

على الرغم من محاولة البيدق البحث عن الدعم الروحي ، والنفسـي بـدلا عن القوة العددية، فإنه لم يعدم الوسيلة في إيجاد العبارات التي لا تجـرح كبريـاء المهدي الإمام المعصوم. فيقول البيدق عن هزيمة البحيرة:"وهزمونا بالعشي ونجـى الموحدون، ومات من مات وافترق الناس. وجاز الخليفة مع طلبـة أغمـات علـى

هيلانة"(17). وفي أعقاب هذه الهزيمة، كانت الملاحقة المرابطية للموحدين الذين لم تترك لهم الفرصة لتقدير عدد القتلى من جهتهم. والمؤكد حسب الروايات أن الجانب المرابطي كان الأكثر عددا والأحسن تنظيما. وبتدعيم صفوف الموحدين بهنتاتة وكنفيسة ومزالة، إضافة إلى وعورة تضاريس الأطلس الكبير الغربي، تمكن الموحدون من النجاة. والدال على ذلك عبارة البيدق "واجتمعنا فلما رأوا منا ما لا يطيقون رجعوا إلى مراكش ونحن إلى تينمل. فكم من قتيل يكون قد لقي حتفه من العدد الذي خرجوا به. وبعد اجتياز إيمن الزات انضافت لهم أعداد أخرى، وسوء التنظيم والارتباك الذي يطول حركة التنقل، والبحث عن الزاد والماء والأمان في صفوف العدد الكبير من الناس عقب المعارك، فهي لا تترك الحياة إلا لمن له القدرة الكبيرة على التحمل، وهذا لا يتأتى إلا بتوفير الإمكانيات اللازمة والضرورية لمثل هذه المواقف: كالظهر الذي يحملهم، والزاد الذي يصلب عودهم. وفي ظل هذه الظروف الحرجة نفد المهدي التمييز الثانية قبل وفاته. حيث سيتخذ خلفه تقليدا آخر كلما أراد الخروج للقتال. وقد يلاحظ القارئ أن هناك لبس وضبابية في الغاية التي من أجلها يقام "التمييز" .قد نقول بان غايته الأولى كانت تنقية صفوف الموحدين من الدخن وحمايتها من الاختراق. وفي المرة الثانية طلب تنفيذ "التمييز" وكانت كنسيفة غائبة – وأسباب الغياب مجهولة – فأعاد المهدي "التمييز" من جديد وكان حريصا على تسجيل أسماء زعماء القبائل، لضمان الولاء وترتيب مكانة كل قبيلة وحظوتها عند الإمام. فلما سأل المهدي كنفيسة وكان ذلك اليوم طلبة كنفيسة غائبين فلم تجيء حتى ميزت هرغة. فقال رجل:"نحن كنفيسة، طلبناكم فما وجدناكم ما الذي أبطأ بكم؟ قال : كان علي عذر وما سمعتك ... وبقي يملوك بن علي المكنى بعمر أزناك فغلبت عليه نفسه، فقال له المعصوم الحق ما قلت، أعيدوا "الميز"، فأعيد "الميز". فلما جازت بغلة المعصوم قال جوزوا فرس عمر آصناك. فلما جاز أخذ المعصوم القلم من يد إسحاق بن برنوس وكتب محمد بن عبد الله عمر بن علي أصناك. ثم مشى سائر الموحدين . وعاد عمر مع أهل تينمل"(18).

إن هذا "التمييز" فضلا عما وسمناه به، لايعدو أن يكون وسيلة فعالة لمعرفة قوة القبائل وزعماؤها ودرجة الجرأة التي يمكنها أن ترد بها على عنف المهدي الذي بدا متسامحا مع طلبة كنفيسة. وسجل اسم عمر آصناك في السجل وهذا اهتمام بالغ به وبقبيله، ولا يستبعد أن يكون هذا الفعل استمالة له. ولم يسجل البيدق أحداثا كالتي سبقت لقاء البحيرة. حيث سيدخل الموحدون عهدا جديدا زمن عبد المؤمن الذي سن بدوره ما سمي: بـ"الاعتراف" الذي أراد أن يحقق من ورائه أنجع وسيلة لتصفية المعارضين، والمخالفين للنظام الموحدي. ونسجل هنا مبدأ التشابه بين الوسيلتين "التمييز" الذي سنه المهدي وعايشه عبد المؤمن. و"الاعتراف" الذي اقتبسه عبد المؤمن وحقق من خلاله اعتراف القبائل بالسلطة الموحدية. فما هي حيثيات "الاعتراف" الذي أقره عبد المؤمن بن علي بعد دخول مراكش بعامين ؟

إذا عدنا للمرجع الأساسي في هذا الشأن سنجد أبو بكر ابن علي الصنـهاجي قد ذكر مصطلح "الاعتراف" أول مرة، بعد حديثه عن أحداث 453 هجريـــة. وقـــد سلك عبد المؤمن نهج سلفه في "التمييز"، إلى حدود السنة المذكـــورة آنفـــا، والتـــي كانت بمثابة الإعلان عن نهج الدولة، في تخطي عتبة الارتجال والعفوية إلى مرحلة التنفيذ بالقوة. ومصدر الاختلاف بين الرجلين يأتي من كون الأول استعمل "التميـيز" ليصل إلى تجميع ما يمكن تجميعه من الراغبين في الخروج عـــن ســلطة الدولـــة المرابطية. وقد خبر قوتها في لقاء البحيرة. أما وقد تمكن المـــهدي مـــن الدخـــول للعاصمة مراكش، بعد أخذ ورد دام أزيد من ثلاثين سنة. فإن عبـــد المؤمـــن قـــد استعمل التمييز بمفهوم أقرب ما يكون إلى وضع الأسس الأولـــى لجيــش نظـــامي أساسه "الساقة" وقد وقع هذا بأمر الخليفة وسهر عليه بنفسه. وتفـــاصيل ذلـــك كمـــا أوردها البيدق يقول فيها "... أمر الخليفة بالميز، فميز بثمانين ساقة، وجازوا الوادي ساقة بعد ساقة ... ووقف هو بمنزل الحجاج بثلاثة آلاف وخمسمائة حتى جوزهـــم ساقة بعد ساقة لئلا يهبط فيهم عدو الله"(19). إن هذا العمل الذي ابتكره الموحدون في عرض المقاتلين وكشف العناصر المدسوسة في فيالق الجيش للقبض عليها، ليدعونـــا وبإلحاح، لطرح المسألة الأمنية التي شكلت أولوية الأولويات في العقود الأولى مـــن مرحلة تأسيس الدولة الموحدية.

ولولا أهمية الشخص الذي يبحث عنه عبد المؤمن لما دعا لتميـــيز ثمـــانين ساقة وقد كلف نفسه عناء الوقوف لإجراء العملية، هو يراقبها بمنزل الحجاج بثلاثـــة آلاف رجل. فالمعني بالأمر هو الصحراوي الذي لم يخضع بعد للموحديـــن، وهـــو يمثل بقايا أعوان المرابطين بفاس المحاصرة سنة 540 هجرية. وخلاصة مـــا آلـــت إليه الأمور هو فرار الصحراوي من باب الفتوح "وهبط إلى سبو هاربا هو وعمـــر بن ياينتان ويحيى بن سير وكدال بن موسى وشيوخ لمطة، هبطوا مع سبو إلى بنـــي تاودا ودخلوا أمركوا وتحصنوا فيه ... ومضى (الصحـــــراوي) هاربـــا إلـــى بـــر الأندلس"(20). لكن هذا الأمر لم يدم طويلا، لأن أبا بكر بن الجبر مـــيز الموحديـــن وخرج إليهم. وساقهم كلهم إلى فاس وقتلهم " إلا عمر بن يينتان، قال لـــه الخليفـــة رضي الله عنه : نهى الإمام المهدي رضي الله عنه عن قتل أولاد يينتـــان فســجنه وخلاه"(21). بهذا الحدث الأخير نذكر الموقف الذي سجله عمر بن يينتان بمراكـــش وحفظه له بن تومرت. فمنع أولاد يينتان من القتل ولم يمنعهم من السجن.

إن الحديث عن "التمييز" و"الاعتراف" على عهد بن تومرت وعبد المؤمـــن بن علي ليحتاج إلى تفصيل أوسع من الذي قمت به الآن. وذلك باعتمـــاد مصـــادر أخرى غير الذي تم اعتمادها في هذه المحاولة. وبما أن الموضـــوع يحتـــاج إلـــى متابعة، لمعرفة نتائج التمييز، والقيام بعملية إحصائية لعدد القتلى الذين حصدهم هـذا "التمييز" والعمل على توسيع دائرة النقاش حول موضوع "الاعتراف".

وعليه فهذا لن يكون ميسرا إلا في محاولة جديدة، تشكل الجزء الثاني لهذا الموضوع الذي لا نظن أنا وفيناه حقه بالكامل. وسنردفه بما تمت الإشارة إليه أعلاه ليكون القصد والغاية منه، المساهمة بالبحث في تاريخ المغرب الديموغرافي..

الهوامش.

1) — أبو بكر بن علي الصنهاجي، أخبار المهدي بن تومرت، دار المنصور للطباعة والنشر، الرباط، 1971، ص.27.
2) — البيدق، أخبار المهدي، ص. 27.
3) — نفسه، ص.11 – 12 – 13.
4) — البيدق، أخبار المهدي...، ص.18 و 20 و 23 و 25 و26 و27.
5) — نفسه، ص.16 و29 – 30
6) — نفسه، ص. 34.
7) — نفسه، ص. 35.
8) — البيدق، اخبار المهدي...، ص. 28.
9) — البيدق، أخبار المهدي...، ص. 39.
10) — البشير، هو أبو محمد عبد الله بن محسن.
11) — سورة الأنفال، الآية 179.
12) — سورة آل عمران، الآية 179.
13) — البيدق، أخبار المهدي...، ص. 39.
14) — نفسه، ص. 39.
15) — البيدق، أخبار المهدي...، ص. 39.
16) — سورة الأنفال، الآية 66.
17) — البيدق، أخبار المهدي...، ص. 40.
18) — البيدق، أخبار المهدي...، ص.41.
19) — البيدق، أخبار المهدي...، ص.61.
20) — نفسه، ص.62.
21) — نفسه، ص. 63.